المؤلف : محمد فتحي | المصدر : مجلة المحاماة ـ مصر سنة 1925

علم النفس الشرعي وآثار الانفعالات النفسية

مجلة المحاماة - العدد الثاني

السنة السادسة - عدد نوفمبر

علم النفس الشرعي وآثار الانفعالات النفسية [(1)]

في عام سنة 1914 وقع حادث شروع في قتل في إحدى القرى التابعة لمركز السنبلاوين وملخصه أن شخصًا من الأهالي أُطلق عليه عيار ناري من يد مجهول حال خروجه من القرية قاصدًا غيطه وكان الوقت قبيل العشاء، وقد أُطلق العيار من مزرعة على جانب الطريق فأصيب المجني عليه في ساعده الأيسر ولما كنت وكيلاً لنيابة ذلك المركز وقتئذٍ قد قمت للتحقيق وفي خلاله حامت الشبهة حول شخص كان خطيبًا لزوجة المجني عليه ولكن والدها أبى أن يزوجها منه لسوء سلوكه وزوجها من المجني عليه.

أخذت في البحث عن هذا المتهم فوجدته في مكان يبعد عن مكان الحادث بمسيرة ربع ساعة وهو يروي زراعة كان معينًا خفيرًا عليها وكان بيده عصاه وقد شهد اثنان من أهالي القرية بأنهما رأياه عقب سماعهما العيار يسير على شاطئ الترعة متجهًا نحو المزرعة التي وجد فيها وكان مجدًا في السير قليلاً وبيده تلك العصا ولما كان المتهم خفيرًا خاصًا لزراعة بعض الأعيان ومرخصًا له بحمل السلاح فقد سئل بطبيعة الحال عن سلاحه فادعى فقده من عشرين يومًا غير أن الشهود شهدوا بأنهم رأوه يحملها قبل الحادث بيوم واحد ولكن نتيجة التحقيق لم تتقدم بعد ذلك خطوة في حين أن ما وصلت إليه من الأدلة لم يكن سوى مجرد شبهات لا تكفي لإدانة المتهم قانونًا غير أنها كونت عندي شبه عقيدة بأنه هو الفاعل ولذلك حصرت اهتمامي في البحث عن السلاح لأن ذلك هو الطريق الوحيد المفتوح أمامي للبحث، وبعد قليل من التأمل لاح لي أن السلاح لم يخبأ في القرية وأن البحث عنه فيها عقيم ولا بد أنه يكون خارجها لأن المتهم لم يكن لديه من الوقت ما يكفي للعودة إليها بعد الحادث كما هو ظاهر من الوقائع المتقدمة وبطبيعة الحال أرجأت التفتيش إلى الصباح لأن البحث عن السلاح في وسط المزارع والغيطان ليلاً ضرب من العبث فوضعت الحرس الكافي حول تلك المزارع لكي لا يقربها أحد.

ولما طلع النهار خرجت لإجراء البحث والتفتيش وبصحبتي المتهم كعادتي عند كل تفتيش لعلى أستفيد مما قد يبدو عليه من التأثيرات النفسانية حال إجراء البحث إذ كان ذلك يساعدني أحيانًا في الوصول إلى غايتي ولكني بمجرد أن خرجت من القرية وقفت برهة حائرًا لأني وجدت أمامي ميدانًا للتفتيش متسع الأرجاء مترامي الأطراف، وأني لي أن اهتدي إلى المكان الذي خبأ المتهم سلاحه فيه، وأن التفتيش في الخلاء يتطلب عناءً شديدًا ومجهودًا

عظيمًا قد يستغرق كل نهاري ولا أصل إلى نتيجة ما، وبينما أنا مسترسل في أفكاري وحيرتي إذ تذكرت في الحال بعض تجارب العلامة منستربرج بشأن ضربات القلب وتأثير الانفعالات النفسانية فيها فوضعت يدي في يد المتهم وبينما كنت متمسكًا بمعصمه وضعت إبهامي خلسة على الشريان الكعبري (وهو الذي يجس منه الأطباء النبض عادةً) وبعد أن تملكت موضع النبض منه جيدًا وأصبحت دقات قلبه تحت إشرافي ومراقبتي ألقيت عليه عدة أسئلة متتابعة بشأن محل إخفاء السلاح وعددت له الأمكنة التي يحتمل أن يكون أخفاه فيها، فذكرت له بعض المزارع ثم ساقيته الخاصة ثم الترعة فالقناة فالمصرف وهكذا فلاحظت أن النبض عند ذكر المصرف كان يشتد ويسرع كثيرًا وإذا ما حولت الكلام عنه إلى أماكن أخرى كان النبض يهدأ ويكاد يعود إلى حالته الطبيعية وهكذا كلما ذكرت له المصرف يعود النبض فيقوى ويسرع وكان أثر الانفعال محسوسًا لدرجة أثارت دهشتي وكانت دقات قلبه قوية واضحة حتى خيل إلى أني أسمعها من صدره فترجح لدى أن المتهم ألقى سلاحه في ذلك المصرف ولكنه مصرف عميق متسع العرض ممتد الطول والبحث فيه شاق فضلاً عن أنه يستلزم مهارة في الغوص، ففي أي مكان منه ألقى المتهم سلاحه ؟ أن هذه لمعضلة ثانية، ولكن بعد أن قدحت زناد الفكر قليلاً أمكنني تعيين ذلك المكان وتحديده بوجه التقريب والفضل في هذا راجع إلى العصا التي كانت بيد المتهم فهي التي أشارت لي عليه ودلتني إلى موضعه، وتفسير ذلك أن للمتهم ساقية خاصة على مقربة من المصرف وقد اعتاد أن يترك عصاه فيها حينما كان يحمل بندقيته في أثناء الحراسة كما علمت ذلك اتفاقًا في أثناء التحقيق فالعصا كانت إذن عند ساقيته وقت ارتكابه الجريمة ولم تكن معه بطبيعة الحال لأنه كان يحمل سلاحه وبعد أن أطلق العيار فر هاربًا نحو الساقية وتناول عصاه منها كما هو ظاهر من وجودها معه عند ضبطه ولما كانت الساقية ملكه الخاص فهو لا يخاطر بإلقاء سلاحه فيها وإنما أول شيء يتبادر إلى ذهنه هو المصرف لقربه وصعوبة انتشال البندقية منه نظرًا لعمقه ولما كان الجاني شديد الرغبة عادةً في التخلص من سلاحه بأسرع ما يمكن فإن أقرب مكان من المصرف إليه وهو الواقع تجاه الساقية هو المكان الذي يتبادر إلى الذهن أنه ألقى سلاحه فيه حتى يصبح حرًا طليقًا من الدليل الخطير الذي يحمله بين يديه، وعلى أثر مرور هذه الخواطر ملت إلى مأمور المركز وعينت له المكان الذي يجب البحث فيه أولاً ولكن المتهم عند ما رأى الرجال المكلفين بهذا البحث متجهين نحو ذلك المكان بدت على وجهه دلائل الارتباك والحيرة وشحب لونه وجف لعابه ولكي يداري اضطرابه وقتئذٍ ويظهر عدم اكتراثه بما يجري حوله أخذ يولي وجهه شطر موضع آخر ويحوله عن مكان البحث من المصرف ولكن بالرغم من كونه أدار وجهه فإن كرتي عينيه كانتا لا تزالان في اتجاه نفس ذلك المكان فازداد اعتقادي بوجود السلاح فيه وقوى أملي في الحصول عليه وبالفعل لم تمضِ خمس دقائق في البحث حتى انتشلت البندقية من قاع المصرف.

إن هذه المشاهدة البسيطة أثارت اهتمامي بعلم النفس التجاربي وزادتني إيمانًا بجليل قدره ويقينًا بجزيل نفعه حيث رأيتني أجني ثمار تجربة من أسهل التجارب بغير الاستعانة بأي آلة أو جهاز خاص فلم أشأ أن أتركها تمر بدون أن يكون لها أثر رسمي ثابت فسجلتها في محضري الذي أخذت به محكمة الجنايات فيما بعد واعتمدت عليه في إدانة المتهم وكنت من ذلك الحين أجد لذة مضاعفة وشوقًا عظيمًا في مطالعة ما كتبه علماء النفس في هذا

الصدد وتطبيق ما أقف عليه من المعلومات في الحياة العملية.

وأني لكي لا استأثر بهذه اللذة وحدي رأيت أن أنقل إلى حضرات زملائي رجال القانون وغيرهم من قراء المجلة بعض تلك المعلومات التي على ضآلتها أرجو أن لا تخلو من بعض الفائدة والنفع وإن لم يكن فيها أكثر من إلفات أنظارهم إلى أهمية هذا العلم الجليل وتوجيه عنايتهم إليه لكفى.

علم النفس والجريمة

وأني قبل أن ألج باب الموضوع بالذات أنتهز هذه الفرصة السانحة لإسداء واجب الشكر إلى مجلة المحاماة الغراء التي أفسحت لمقالي صدرًا رحبًا على صفحاتها والفضل في ذلك راجع إلى رئيس تحريرها وعمادها المكين حضرة زميلي الفاضل عزيز خانكي بك فإن غيرته على القانون والعلم من أقوى العوامل التي شجعتني على نشره إذ أنه بمجرد أن علم بأني ألقيت في أول هذا العام محاضرة بهذا المعنى في نادي الحقوق طلب مني أن أبعث إليه بنصها لنشرها ولكن لما يكن لدي وقتئذٍ منها سوى مذكرة صغيرة برؤوس مواضيع لا تفي بالمرام وكان ضيق وقتي يحول دون وضعها في شكل محاضرة مكتوبة فلم استطع أن أوافيه بما طلب ولذلك فإني أعتذر لحضرته ولحضرات قراء المجلة عن هذا التأخير ولما كانت ثمرات العلم لا يتوقف جنيها على أوان أو مكان فإني أبر له الآن بوعدي واستعيض عن المحاضرة بهذا المقال الذي جعلته في مضمونه قريبًا منها بقدر ما تعي الذاكرة وحتى بذلك أكون قد قمت من جهة أخرى ببعض الواجب نحو إخواني الذين وقع تقصير في دعوتهم أو الذين تعذر عليهم سماعها لضيق المكان ولهذا فإني جعلت موضوع هذا المقال قاصرًا على (آثار الانفعالات النفسانية) التي كانت موضوع المحاضرة كما أنه ليس من المستطاع التكلم عن علم النفس والجريمة أو بعبارة أخرى (البسيكوجيا الشرعية) بصفة عامة في رسالة صغيرة كهذه من غير أن تبدو مخلة بعيدة عن الغرض المقصود لأن علمًا واسعًا متشبعًا كهذا لا يمكن حصره في مقال أو مقالين بل يتطلب سلسلة مقالات لا حد لها ولا حصر إذ أن ارتباط علم النفس بالقانون يشمل موضوعات شتى كدرس عقلية المجرم والأسباب التي يتولد عنها الميل للإجرام والعوامل التي تدفع الشخص إلى ارتكاب الجريمة وطرق الوقاية منها ومعالجة الأمراض والأدواء الخلقية وأساليب منع الجرائم والوسائل المؤدية إلى اكتشافها عند وقوعها والبحث في نفسية الشهود وذاكرتهم وانخداع حواسهم والتأثير بالإيجاد أو بالتنويم المغناطيسي والاعترافات الكاذبة وهلم جرا.

وإني وإن كنت اخترت من بينها موضوع (آثار الانفعالات النفسية) أولاً فما ذلك إلا لكونه على جانب من السهولة كما أنه لا يخلو من تسلية ولذة قد تنبه شوق القارئ إلى متابعة البحث والاطلاع.

تعريف علم النفس

قبل أن أبدأ الكلام على الانفعالات النفسية بوجه خاص أرى المقام يتطلب كلمة موجزة عن علم النفس بوجه عام، فعلم النفس وترجمته باللغة الإنجليزية (Psychologty)، وهي كلمة مركبة من عنصرين يونانيين (Psyche)، ومعناها اكسير الحياة أو الروح و (Logy)ومعناها علم وهي مشتقة من كلمة (Logos) وترجمتها

بالعربية (لغة).

فعلم النفس كان معروفًا قديمًا بأنه العلم الذي يبحث في ماهية الروح ومظاهرها المختلفة إلا أنه كان معدودًا من علوم الفلسفة النظرية وكانت قواعده ونظرياته المرجع فيها إلى الحدس والتخمين فلم يكن معروفًا كعلم طبيعي بالمعنى المعروف الآن.

أما اليوم فإن علم النفس الحديث الذي بدأت نهضته العلمية من عهد قريب لا يتجاوز نصف قرن قد أصبح معدودًا من العلوم الطبيعية كعلوم الفسيولوجيا (علم وظائف الأعضاء) والبيولوجيا (علم الحياة) والامبريولوجيا (علم تكوين الأجنة)، والبكتريولوجيا (علم المكروبات) والكيمياء والطبيعة وغيرها من العلوم الطبيعية المؤسسة على قواعد إيجابية صحيحة، وأني لأميل إلى اعتبار علم النفس فرعًا خاصًا مشتقًا من علم الفزيولوجيا وسواء كان رأيي هذا خطأ أو صوابًا فإنه مما لا جدال فيه أن لعلم النفس ارتباطًا شديدًا بفزيولوجيا المجموع العصبي وهو المركب من الأجهزة الرئيسية الثلاثة، الحس والإدراك والحركة في حين أن علم النفس يبحث في وظائف هذه الأجهزة بعينها وتعليل مظاهرها المختلفة كعلم الفزيولوجيا سواء بسواء.

فمما تقدم يمكننا أن نستخلص النتيجة الآتية وهي أن علم النفس القديم يصح تعريفه بأنه (علم دراسة الروح)، وعلم النفس الحديث (بعلم دراسة العقل)، ودراسة العقل تستدعي بطبيعة الحال دراسة الحس والإدراك والحركة بجميع مشتملاتها وفروعها كالرغبة والمعرفة والتعليل والقصد والتصميم والإرادة والتصور والتمييز وما شاكل ذلك.

فبعد أن كانت الظواهر الفكرية تفسر قديمًا تفسيرًا نظريًا بحتًا أو فلسفيًا أصبحت الآن تفسر تفسيرًا علميًا مؤسسًا على التجارب والمشاهدات الصحيحة المؤيدة بالحس والدليل المادي الملموس وأن الإنسان كما يستطيع أن يحلل مركبًا من المركبات الكيميائية كذلك يستطيع الآن بوسائل فنية مماثلة أن يحلل المظاهر العقلية وكما نجد أن معمل الفزيولوجي أو العالم الطبيعي أو الكيميائي عبارة عن معرض من الأنابيب والمعوجات والأحواض والبطاريات الكهربائية والأسلاك المتشابكة وغيرها من مختلف العدد والآلات كذلك نجد معمل الباحث النفساني في وقتنا الحاضر، وقد قطع علم النفس العملي أو التجاربي مرحلة واسعة في سبيل التقدم وبالأخص في ألمانيا والنمسا والولايات المتحدة وكندا.

ومتى علمنا أن علم النفس أصبح علمًا طبيعيًا اطمأنت نفوسنا إلى الأخذ به في التحقيقات الجنائية بنفس الطمأنينة التي تأخذ بها التقارير الطبية الشرعية لأن كلاً منها المرجع فيه إلى المشاهدة والخبرة الفنية المشفوعة بالمستند العلمي، كذلك يمكننا استخدام علم النفس كوسيلة لاكتشاف الجرائم أو منعها أي أنه يمكن الانتفاع به كعلاج ووقاية معًا.

آثار الانفعالات النفسية

عرفنا مما تقدم ما هو علم النفس الحديث ومركزه بين العلوم الطبيعية الأخرى وأصبحت لدينا الآن فكرة عامة من جهته فلنتكلم الآن عن آثار الانفعالات النفسية بوجه خاص وهي موضوع مقالنا الحالي.

فآثار الانفعالات النفسية يمكن تعريفها بأنها هي الأعراض التي تبدو على الأعضاء الظاهرة أو الباطنة للشخص بسبب عامل من العوامل التي تؤثر في تلك الأعضاء تأثيرًا خاصًا كالسرور والحزن والغضب والخوف والتهيج والهبوط وغيرها ، فكل حالة من هذه الحالات لها تأثيرها الخاص في المجموع العصبي وبجملته جهاز الحركة وقد دلت الخبرة على أن حالتي السرور والحزن وهما إجمالاً الحالتان الرئيستان اللتان تتفرغ عنهما معظم الحالات الأخرى لهما نتيجتان عكسيتان من حيث التأثير في أعضاء الجسم وأعراضهما متضادة فحالة السرور تزيد في الحركات الخارجية وتجعلها مبالغًا فيها أي أكثر من المعتاد وتقلل من الحركات الداخلية وتجعلها أقل من المعتاد [(2)] وأما حالة الحزن فإنها تؤدي إلى عكس ذلك أي أنها تجعل الحركات الخارجية أقل والداخلية أكثر من المألوف بمعنى أن حركة البسط تقل والقبض تزيد.

وأنه لما يوجب الحيرة معرفة العلة الأساسية لهذه الظواهر العضوية المتباينة فقد يسأل الإنسان نفسه لماذا تولد حالة السرور انتشارًا في عضلات الجسم وأعضائه وحالة الحزن والكآبة تولد فيه قبضًا وانكماشًا ؟ ولماذا لا يكون الأمر معكوسًا ؟ ولكن في اعتقادي أن هذا اللغز يسهل حله إذا كنا نسلم بصحة قانوني (الوراثة) و(النشوء والارتقاء) فإن هذه المظاهر المتباينة قد ورثناها عن جدتنا الأولى في عالم الأحياء وهي الخلية البسيطة منشأ الكائنات الحية وبجملتها الإنسان فهي صفات غريزية في الإنسان والحيوان من مبدأ خلقهما حتى الآن.

ولكن الاقتناع بذلك يقتضي منا تسليمًا بتوافر غريزة أودعها الله في نفس كل كائن حي منذ القدم وهي غريزة حب البقاء وأن جميع أعمال الإنسان والحيوان ومقاصده ترمي إلى هذه الغاية حتى أن الميل الجنسي وكل ما يتفرع عنه مرجعه إليها لأن القصد منه التناسل أي بقاء النوع، فغريزة حب البقاء قد يتولد عنها كثير من العوامل الفرعية التي ترمي إلى الغاية نفسها ومن بين هذه العوامل ميل الكائن الحي إلى السعي لتحصيل قوته ومن البديهي أن هذا السعي يتطلب منه البسط والانتشار بعكس عامل الخوف أو الفزع فإنه يدعوه إلى الانكماش والتقلص وهذه الظواهر التي تشاهد في الأحياء الراقية تشاهد كذلك في الأحياء الدنيئة حتى في أبسطها تركيبًا مثل الأميبا (Amoeba) [(3)] فبعمل التجارب على هذا الكائن الحي الدقيق بوضعه تحت عدسة المجهر (الميكروسكوب) يلاحظ أنه يتأثر بالمنبهات فإذا وخز بسن حاد كسن الإبرة أو مس سطحه بسائل كاوٍ أو حريف أو سلط عليه تيار كهربائي شديد أو قرع بجسم صلب على اللوح الزجاجي الموضوع عليه الحيوان يتقلص وينكمش في الحال ويأخذ شكلاً كرويًا كمن يريد أن يجمع كل قواه المنتشرة ويلم شتات أطرافه في نقطة ارتكاز واحدة يتخذها مركزًا للدفاع أو لمواجهة الخطر المحدق به وبالعكس من ذلك إذا لامسه سائل مغذٍ فإنه ينبسط وتظهر أطرافه وتنتشر بقصد التهام العناصر المغذية التي بداخل ذلك السائل وهضمها ويسمى النوع الأول من المنبهات وهو الذي يدفع الخلية إلى التقلص أو التكور (بالمنبه المنفر) ، والنوع الثاني الذي ينبهها إلى البسط والانتشار (بالمنبه الجذاب) ، وهذه التجارب معروفة لكل باحث فزيولوجي وبيولوجي.

وقد تشاهد هذه الحالات بوضوح في بعض الحيوانات ذات الخلايا المتعددة ولو كانت من النوع المنحط كالديدان والحشرات والحيوانات ذات الأصداف والدروع الطبيعية كالمحار والقواقع فإنها بمجرد اللمس تتقلص وتتكمش أو تتكور أو تهرع إلى أصدافها ودروعها وبالعكس إذا صادفت ما تستطيبه أو تلتذ به فإنها تنفرد وتنتشر وتفتح

أصدافها وتبرز منها.

وقد نفسر بهذا ما نسمعه أحيانًا ونعده من قبيل الأساطير والخرافات من أن زيدًا من الناس اجتذب إليه الوحوش بقيثارته أو الطيور بصفيره أو الثعابين بمزماره فإن السرور أو الطرب يجتذبها إلى مصدره في حين أنها تفر من الألم وتهرع إلى أوكارها وتنكمش فيها خوفًا ورعبًا.

وكما أن الكائنات الحية من أول الخلية البسيطة إلى أرقاها نوعًا وهو الإنسان يجذبها السرور إلى مصدره وينشرها وتنفر من الألم وتفر من وجهه كذلك عضلات الجسم وأنسجته وخلاياه خاضعة لنفس هذه المؤثرات فلو عرض سطح عضلة من العضلات لسائل حريف أو كاوٍ أو شديد البرودة أو الحرارة أوخذت بآلة مدببة أو سلط عليها تيار كهربائي قوي انكمشت العضلة وتقلصت حتى ولو بعد قطع (العصب المحرك) لكي لا يكون هناك شك في أن للفعل المنعكس دخلاً في تقلصها أما لو وضع عليها سائل مغذٍ لذيذ الطعم وعلى درجة من الحرارة معتدلة أو دلكت دلكًا لطيفًا انبسطت العضلة وانشرحت.

ولا أظن أني أكون مخطئًا إذا ما قلت إن كلمة (انبساط) التي يستعملها عامتنا للتعبير عن حالة السرور ما هي إلا كلمة بليغة المعنى منطبقة تمامًا على تلك الظاهرة الطبيعية التي أيدها العلم الصحيح حتى في أبسط الأحياء تركيبًا وأدقها حجمًا فلننظر كيف يفعل بنا السرور فإنه يحملنا على بسط أيدينا وأرجلنا وسائر أعضائنا وكثيرًا ما نشاهد الصبي عند الفرح يصفق بيديه مبسوطتين ويطوح برداء رأسه نحو السماء طربًا ويفتح شدقيه بالصياح والتهليل ولننظر كيف يفعل بنا الحزن أو الخوف من الانقباض والانكماش وتقلص العضلات.

أليست لكل منا خبرة بما يعتري الإنسان عند رؤية الأشباح المخيفة أو سماع الأصوات المزعجة أو لمس الأجسام الغريبة في الظلام من قشعريرة خاصة في البدن وانقباض في الجلد يقف معه الشعر أحيانًا وخفقان في القلب واضطراب في حركة التنفس وامتقاع في لون البشرة وبرودة في الأطراف وما ذلك إلا لكون رؤية الشبح المخيف وسماع الصوت المزعج ولمس الجسم الغريب كلها عوامل نفذت عن طريق الحواس (البصر أو السمع أو اللمس) إلى المخ فأيقظت فيه ذكرى مخيفة فتظهر في الحال آثار الانفعالات على الإنسان.

فإذا ما سلمنا بهذه النظرية التي تدل على صحتها وتؤيدها الشواهد الكثيرة في حياتنا اليومية أمكننا أن ندرك بدون صعوبة سر انكماش عضلات الجسم في حالة الخوف وانفرادها في حالة السرور فهي غريزة ورثناها عن جدتنا الخلية في بدء خلقها في العصور الأولى فحملتها إلينا سفينة الوراثة مع ما تزودته في مراحلها من ثمرات الأجيال الغابرة وهي تمخر عباب الدهر جريًا على سنة النشوء والارتقاء ولا زالت ممثلة في الخلايا الكثيرة التي تتألف منها مجموعة أجسامنا البشرية حتى الآن.

غير أن المؤثرات النفسية قد تكون مباشرة كوقوع حادث فجائي يصطدم بالحواس فينبه مركز الحركة من المجموع العصبي فتبدو آثار الانفعال الخاصة بكل حادث على حسب نوعه وقد يكون التنبيه بطريق غير مباشر بتنبيه مركز الحركة بواسطة الذاكرة أو المخيلة وعندئذٍ تظهر آثار الانفعال النفساني على أعضاء الحركة بنفس الصورة التي ألفها الإنسان واعتادها من قبل في مثل هذه الأحوال أو بعبارة أخرى أن الانفعالات قد يكون مصدر التنبيه فيها أما خارجيًا كأن يطرق عامل الخوف أو الحزن أو السرور أو الغضب باب الحواس فيوقظ

مركز الحركة وهو يدفع الأعضاء إلى العمل وأما باطنيًا بأن يقع التنبيه على المركز العصبي للحركة من الداخل مباشرةً بوساطة عامل نفساني باطني كذكرى حادث مؤلم أو مخيف أو محزن أو سار فتظهر على الأعضاء نفس الأعراض الخاصة بكل عامل من هذه العوامل.

ولأجل تقريب ذلك من أذهان حضراتكم يمكن من قبيل الفرض تشبيه الحوادث بالتيارات الكهربائية وتشبيه الأعصاب بالأسلاك الموصلة للتيار ومركز الحركة سواء كان من المراكز الواقعة في المخ أو في الحبل الشوكي بالمحرك (الدينامو) والحافظة بوعاء تخزين فيه السيالات الكهربائية للحوادث عند وقوعها كما تحفظ القوى الكهربائية في البطاريات المعروفة بالمكثفات، فإذا وقع حادث ما واصطدم بإحدى الحواس الخمس كحاسة اللمس مثلاً التي تكون بمثابة أحد قصبي الاتصال فيمر السيال الكهربائي (بأعصاب الحس) ومنها إلى مركز الحركة (الدينامو) فيتنبه المركز المذكور ويقوم بأداء وظيفته وهي تحريك الأعضاء المسلط عليها ذلك المركز ويدفعها إلى الحركة بواسطة الأعصاب المحركة.

فإن كان الحادث مزعجًا أو منفرًا قامت الأعضاء المخصصة للدفاع عن الجسم بواجبها وإن كان جذابًا أو محرضًا تولدت فيها الحركات الخاصة بالتعدي أو الهجوم وإن كان سارًا بدت على الكائن الحي علامات السرور والانشراح وإن كان محزنًا بدت عليه آثار الكآبة والانقباض وهلم جرا.

ولكن مثل هذه الحوادث لا تمر عادةً من غير أن تترك صورة خالدة من الذاكرة وهي حكمة أودعها الخالق سبحانه وتعالى في نفس المخلوق لكي يتخذ له منها عبرة وموعظة ولكي تكسبه في مستقبل حياته خبرة تقيه شر الوقوع في الخطأ أو الاندفاع إلى مواضع الخطر مرة أخرى، فإذا ما لمس الطفل النار مرة ولذعته رسخت هذه الذكرى المؤلمة في ذهنه لكي لا يلمس النار مرة أخرى فإذا وقع بصره عليها ثانيًا ولو عن بعد تنبهت لديه ذكرى الألم بل ربما تقلصت عضلات جسمه في موضعه فلا يقربها ولعل الكثير منا لاحظ كيف تتقلص عضلات المعدة ويعترينا تهوع وغثيان وقد يعقبهما قيء أحيانًا بمجرد وقوع بصرنا على دواء أو شراب علمنا بالخبرة أنه كريه الطعم أو الرائحة بل ربما كان مجرد تذكرة كافٍ لدى البعض منا لإحداث هذه الأعراض.

فمما تقدم يتبين لنا كيف أن صور الحوادث تحفظ في المخ وفوق ذلك فإن الشواهد كلها تؤيد أنها لا تحفظ فيه فقط لمجرد الحفظ بل تحفظ فيه بترتيب ونظام كما لو كان لكل نوع منها مستودع خاص به يشحن بجانب من السيال الكهربائي لكل حادث حال مروره بالأعصاب واشتغال المحرك وذلك حتى يسهل الرجوع إليها إذا دعت الحاجة إلى الحكم على أمر من الأمور عن طريق الموازنة أو القياس.

فإذا أوقظ في الذهن نوع من الحوادث اندفع السيال الكهربائي من المستودع الخاص بذلك النوع إلى مركز الحركة فيقوم هذا بتنبيه أعضاء الحركة الخاضعة له وهذا ما يعبر عنه بحسب الاصطلاح العلمي أو الفني بالدافع الذاتي.

إنما لا يفهم من ذلك أن هناك اتصالاً دائمًا بين مستودعات الحوادث وبين المحرك لكي لا يكون التنبيه واقعًا باستمرار على مركز الحركة بل هذا الاتصال مقطوع كما لو كان في طريق الأعصاب الموصلة بينهما زر كهربائي قاطع للتيار لا يتصل إلا إذا عمدت يد عامل من العوامل المنبهة إلى وصله حتى لا يتحمل الإنسان في

حياته أوجاع مصائبه الماضية بغير ضرورة أو مقتضٍ ولا ينوء تحت عبء ما يحمله في ذاكرته من مجموعة آلامه وأوصابه التي انتابته في ماضي حياته.

فإذا ما ضغطت يد العامل المنبه على (زر) الاتصال اتصل التيار وانطلق من المستودع بعض الشحنة إلى مركز الحركة وعندئذٍ تتكرر الانفعالات الخاصة بهذا النوع من الحوادث في صورة قد تكون مخففة نوعًا مما لو كان الحادث محققًا أو حالاً كما لو كانت المكثفات فقدت بمرور الزمن جزءًا من قوة كهربائيتها.

وإني لا أبغي أن أبتعد بالقارئ كثيرًا عن جوهر الموضوع وهو ما للانفعالات النفسية من الارتباط بالجرائم فلم يحملني على هذا الإسهاب الذي أخشى أن يكون مملاً إلا الرغبة في تعليل آثار تلك الانفعالات وردها إلى أسبابها الطبيعية حتى يمكننا فهمها علميًا والاستفادة منها عمليًا ولكني قبل أن أنتقل إلى جوهر الموضوع أريد أن أدفع مقدمًا اعتراضًا طالما سمعته من الكثيرين وهو أن المجرم الماهر المدرب الذي ماتت من قلبه كل عاطفة قد يستطيع استخدام كل ما أوتي من قوة إرادة وعزم في أن يخفي عواطفه فلا تبدو عليه آثار الانفعال.

أجل قد يكون من الهين عليه أن يخفي الآثار الظاهرة لحركاته وإشاراته الخارجية أو يلطف كثيرًا من حدتها بحيث لا تبدو محسوسة كما أنه ليس من المحتم أن يبكي المرء عند الحزن أو يضحك عند السرور ولكن ليست الأعين والشفاه والأيدي والأرجل هي التي تشهد علينا دون غيرها فإن هذه التزمت الصمت وقويت على الكتمان فهناك أعضاء أخرى لا سلطان لإرادتنا عليها قد تكشف الستار بالرغم منا عن الرواية التي تمثل في مسرح المخيلة وتنم عن تفاصيل المعركة التي تدور رحاها في ميدان الضمير، وكيفية ذلك أن في الجسم نوعين من الأعضاء من حيث الحركة فالنوع الأول تتألف منه الأعضاء ذات الحركة الإرادية أي الخاضعة في حركاتها لمركز الإرادة في المخ كالأيدي والأرجل والشفاه والجفون والعيون وغيرها من سائر الأعضاء التي يمكننا تحريكها أو إيقاف حركتها كلما أردنا ، والنوع الثاني يتألف من الأعضاء ذات الحركة غير الإرادية كعضلات القلب والعضلات المبطنة لجدران الأوعية الدموية والعضلات والأنسجة الأخرى لبعض الأحشاء الصدرية والبطنية والحوضية وكذلك غدد العرق والدمع واللعاب وغيرها من الغدد ذات الإفرازات المختلفة.

فالنوع الأول من الأعضاء خاضع في حركته لجهاز عصبي يختلف في نوعه عن الجهاز العصبي للأعضاء ذات الحركة غير الإرادية ويسمى الأول (بالجهاز العصبي الإرادي)، والثاني (بالجهاز العصبي الذاتي) والأول مراكزه العصبية خاضعة لمركز الإرادة في المخ، والثاني مراكزه العصبية بعيدة عن مركز الإرادة مقطوع الاتصال به ومعظم هذا الجهاز الأخير مؤلف من سلسلة عقد عصبية على جانبي العمود الفقري ومعروفة باسم العظيم السنبتوى وبعض عقد أخرى كائنة في الدماغ والبعض الآخر في جدران نفس الأعضاء المسلطة عليها هذه المراكز كما في القلب.

فالفرق بين هذين الجهازين جلي واضح من حيث التأثير في حركات الأعضاء فإن كان في وسعنا أن نمنع أيدينا وأرجلنا عن الحركة أو إبداء أي إشارة تنم عما نبطن في نفوسنا فمن الذي يستطيع منا أن يغير بإرادته دقات قلبه وسرعة نبضه ودرجة امتلائه وقوة ضغط دمه وكمية إفراز غدة من غدد جسمه أو حركات أمعائه وأحشائه الباطنية أو درجة حرارة جسمه ؟ فإذا كان ليس في وسعنا ذلك وعلمنا بالتجربة والمشاهدات الدقيقة أن لكل

انفعال نفساني آثارًا خاصة به ومميزات تسجلها علينا أعضاؤنا المتمتعة بالحركة الذاتية كما يسجل الترمومتر والبارومتر درجات الحرارة والرطوبة وأمر أمهر ممثلي العالم مهما بلغ من الدربة والحنكة لا يقوى على سترها وإخفائها.

فإذا ما تقرر ذلك ألسنا نجني من وراء دراسة هذه الآثار وكشفها أجل فائدة عملية وأنه بقدر ما يوجد لدينا من الآلات المتقنة الصنع التي بها يمكننا رصد حركات الأعضاء الباطنية بدقة بقدر ما يسهل علينا كشف ما يجول بخاطر المتهم الموضوع تحت الاختبار واستخراج مكنون أسراره، وأن آلات كهذه يكون مثلها كمثل المجهر الذي يكشف لنا أنواع الجراثيم ودقائق الأنسجة المختلفة للجسم في تشخيص الحالات المرضية.

بحث الموضوع من الوجهة العملية

إلى هنا قد انتهينا من الكلام في الموضوع من الوجهة العلمية بقي علينا أن نتكلم عنه من حيث التطبيق وكيف يمكننا الاستفادة منه في الأبحاث الجنائية عمليًا.

ولنبدأ الآن بتجربة سهلة نتيجة الاختبار الشخصي وقد أجريتها على الآلة الموسيقية المعروفة (بالكمنجة) فقد أجريت عليها عدة تمرينات خاصة في أوقات وحالات نفسانية مختلفة فلاحظت أن لكل حالة منها تأثيرًا خاصًا على حركات العفق (أعني الضغط على الأوتار بالأصابع لإحداث النغمات المختلفة)، وبمراقبة تأثير كل حالة منها مراقبة دقيقة ظهر لي أنه في حالة السرور تنخفض أصوات الأنغام المتولدة من العفق عن أصولها قليلاً وذلك سواء عند الصعود بالأصابع على وجه الكمنجة لتوليد الأنغام العالية أو عند النزول في اتجاه طرف الكمنجة الوحشي المعبر عنه (بالبنجق) لتوليد الأنغام المنخفضة أي أن حالة السرور تولد انخفاضًا في النغمات المعفوقة على العموم سواء في حالة الصعود (وهي التي تستدعي جذب الساعد للداخل) أو في حالة النزول (وهي التي تستدعي بسطه للخارج) - وأن حالة الحزن تولد ارتفاعًا في الأصوات المعفوقة على العموم (أي في حالتي الصعود والنزول) - وحالة الغضب والتنبيه العصبي تولد ارتفاعًا في النغمات الصاعدة وانخفاضًا في النغمات الهابطة عن أصولها قليلاً - وحالة الهبوط والانحطاط تولد انخفاضًا في النغمات الصاعدة وارتفاعًا في النغمات الهابطة - وإذا ما عرفنا أن النغمات الصاعدة هي التي تتولد من الزحف باليد على وجه الكمنجة إلى الداخل وهذا يقتضي قبض الساعد وأن النغمات الهابطة تتولد من تحريك اليد إلى الخارج وهذا يقتضي بسط الساعد أمكننا أن نستخلص النتيجة الآتية:

- السرور يزيد حركات البسط ويقلل حركات القبض.
- الحزن يقلل حركات البسط ويزيد حركات القبض.
- الغضب يزيد حركات البسط ويزيد حركات القبض.
- الهبوط يقلل حركات البسط ويقلل حركات القبض.

وقد أجرى علماء النفس تجارب عديدة بالطرق الفنية الصحيحة فوجد بالاختبار أن لكل حالة نفسانية تأثيرًا خاصًا على حركات التنفس والنبض والدورة الدموية وغير ذلك بحيث إذا قيست تلك الحركات بدقة ودونت في

شكل موجات بوساطة الأجهزة المخصصة لذلك والمعروفة لدى علماء الفيزيولوجيا أمكن بكل سهولة تشخيص الحالة النفسانية المتسلطة على الشخص وقت الاختبار ومعرفتها بدقة فلأجل قياس التنفس وضع جهاز يسمى البنوموجراف (Pneumograph) وهو عبارة عن أسطوانة حلزونية من السلك مكسوة بغلاف رقيق من المطاط (الكاوتشوك) تربط على الصدر بحيث إن أقل حركة في التنفس تؤثر في طول الأسطوانة فتتكمش أو تنفرد بحسب حالتي الشهيق والزفير وفي نهاية الأسطوانة أنبوبة رقيقة من المطاط وفي طرفها (ترمسة) مجوفة صغيرة من المطاط كذلك وهذه يرتكز على أحد سطحيها ذراع صغير يعلو وينخفض مع سطح (الترمسة) عند انتفاخه أو انخفاضه تبعًا لامتلائها بالهواء القادم من الأسطوانة عند انكماشها أو تفريغه فيها عند انفرادها، وهذا الذراع الصغير مسلط على ذراع أطول منه بمثابة مؤشر أو عقرب طويل لكي يضعف حركة الذراع الصغير ويكبرها حتى بذلك تبدو أخف الحركات كبيرة واضحة والمؤشر أو الذراع الكبير تارة يكون مركبًا على وجه لوح مدرج لقياس حركات التنفس وتارة يكون طرفه مسلطًا على سطح شريط من الورق ملفوف على أسطوانة ذات حركة آلية بطيئة منتظمة ويكون طرف المؤشر مغموسًا في الحبر لكي يرسم على سطح الشريط الموجات الناشئة عن حركات التنفس من شهيق وزفير وقد دل الاختبار على النتائج الآتية:

في حالة السرور يسرع التنفس ويصير خفيفًا.

في حالة الحزن يبطئ التنفس ويصير عميقًا.

في حالة الغضب يسرع التنفس ويصير قويًا.

في حالة الهبوط يبطئ التنفس ويصير خفيفًا.

وبعمل تجارب على النبض بوساطة جهاز خاص معروف باسم سفجموجراف (Sphygmograph) وهو جهاز بني على نظرية شبيهة بنظرية البنوموجراف تقريبًا.

فوجد

- أن في حالة السرور يبطئ النبض ويصير قويًا.
- أن في حالة الحزن يسرع النبض ويصير ضعيفًا.
- أن في حالة الغضب يسرع النبض ويصير قويًا.
- أن في حالة الهبوط يبطئ النبض ويصير ضعيفًا.

وهناك أيضًا جهاز يسمى (بالبلتزموجراف) (Plrthysmograph) لقياس مقدار توارد الدم في عضو من الأعضاء وهو عبارة عن أسطوانة من الزجاج تملأ بالماء ويغمر العضو المراد اختباره كالساعد مثلاً ويحكم سد فوهتها بمعجون يمنع تسرب الماء وبها ثقب متصل بأنبوبة رفيعة من المطاط في نهايتها (ترمسة) صغيرة من المطاط مسلطة على عقرب يتبع في حركته ضغط الهواء الذي يرد إلى (الترمسة) فأقل زيادة في توارد الدم في العضو المختبر يظهر أثرها في كمية الماء التي تملأ الأسطوانة فيرتفع الماء قليلاً وبذلك يضغط على كمية الهواء التي بداخل الأنبوبة وبالتالي (الترمسة) فتنتفخ هذه الأخيرة قليلاً فيتحرك العقرب، وقد وجد بالتجربة أن لكل انفعال تأثيرًا خاصًا في كمية الدم التي تتوارد على ذلك العضو الموضوع تحت التجربة.

كذلك تظهر آثار الانفعالات النفسانية في حركة الساق الناشئة من الدق على وتر الركبة بتأثير الفعل المنعكس بمعنى أن الزاوية التي تتكون من هذه الحركة وجدت تختلف درجتها باختلاف الحالات النفسية المتنوعة بمعنى أن لكل حالة منها زاوية خاصة بها، وقد استخدم لذلك جهاز خاص ذو مطرقة صغيرة تدق على ذلك الوتر دقات متساوية القوة في فترات منتظمة ثم رصدت الحالات النفسية المختلفة حال إجراء هذه العملية، وعلى هذا القياس قيست معظم حركات الجسم وسكناته.

(تجارب الأستاذ منستر برج)

وقد وضع العلامة هوجو منستر برج أستاذ علم النفس بجامعة هارفارد بالولايات المتحدة وأحد مؤسسي علم النفس العملي الحديث بعض تجارب قيمة في هذا الموضوع وذات فائدة عظمى أنقل إليكم بعضها لأهميتها.

التجربة الأولى:

جاء بلوح مركب على أربع (بيل) يتحرك على سطح أملس ليكون اللوح سهل الحركة ما أمكن ثم كلف الطالب المراد اختباره بأن يضع يده على اللوح المذكور بعد أن حمل ذراعه بالقرب من المرفق بحبل متصل بحبل معلق في السقف لتكون يده مطلقة الحرية في التحرك إلى أي اتجاه كان واستحضر عدة بطاقات مكتوب على كل منها حرف معين من الأحرف الهجائية واختار من بينها حرفًا عرضه على الطالب وكلفه أن يحصر ذهنه فيه جيدًا وبعد ذلك وضع هذا الحرف بين باقي الأحرف التي صفت في شبه نصف دائرة حول اللوح الذي عليه يد الطالب فلاحظ أن يده تحركت في اتجاه مكان الحرف الذي كان حصر فيه ذهنه ولما نقل الحرف المذكور من مكانه تحركت اليد ثانيًا في اتجاه المكان الجديد لذلك الحرف وهكذا كلما غير مكان الحرف تحركت يد الطالب نحو المكان الجديد على غير قصد منه ومن ذلك علم الأستاذ منستر برج أن هناك صلة بين حركة اليد وبين الحرف الذي ارتبط به ذهن الطالب وقال إنه لو جيء قياسًا على ذلك بمجرم ينكر سلاحه الذي وجد بمحل الحادثة ووضع هذا السلاح بين عدة أسلحة أخرى في شبه نصف دائرة حول ذلك اللوح الذي يكلف الجاني بوضع يده عليه وشوهدت يده تتبع في اتجاهها مكان ذلك السلاح دون سواه لدل ذلك على أن للمتهم صلة بالسلاح المذكور وقد أطلق على هذا الجهاز البسيط اسم (Automatgraph) أي كاتب الحركة الذاتية لأنه ركب في طرف اللوح جهازًا صغيرًا يسجل اتجاهات الحركة على قطعة من الورق أسفل اللوح.

التجربة الثانية:

قد علمنا فيما مضى أن حالة الخوف ينشأ عنها تقلص في عضلات الجسم وبالأخص عضلات أعضاء الحركة ولذلك قد استخدم الدكتور منستر برج كرة صغيرة من المطاط متصلاً بها أنبوبة رفيعة في نهايتها (ترمسة) صغيرة من المطاط أيضًا والترمسة مسلطة على ذراع صغير متصل بذراع كبير يعظم الحركة مركب على لوح مقسم بحيث إن أقل حركة في الأصابع تحدث ضغطًا على الكرة التي في قبضة اليد يظهر أثره مكبرًا على اللوح بوساطة المؤشر فإذا ذكر أمام المتهم اسم المجني عليه أو اسم متهم آخر كان شريكًا له في الجريمة بين عشرين اسمًا مثلاً لأشخاص آخرين ولوحظ أن المؤشر تحرك عند ذكر اسم المجني عليه أو الشريك دون باقي الأسماء

أمكن أن نستنبط من ذلك وجود علاقة بين المتهم والشخص المسمى بالرغم من تجاهله إياه وما ذلك إلا بسبب كون سماعه لهذا الاسم أحدث في نفسه انفعالاً نتيجة الخوف فتتقلص عضلات اليد والأصابع فيضغط الشخص على غير قصد منه وبدون انتباه على الكرة التي في يده فيضغط الهواء الذي فيها ويملأ الترمسة فتنتفخ وبذلك يتحرك المؤشر.

التجربة الثالثة:

لاحظ منستر برج أن لكرة العين نوعًا من الحركة قد يكون مستقلاً عن إرادة الشخص وقصده فتتحرك في اتجاه معين وهو لا يعلم من أمرها شيئًا ولإثبات ذلك قد جهز بطاقات كتب على كل منها كلمة من الكلمات العادية إنما جعل من بينها كلمة ذات تأثير خاص في نفس الطالب الذي ستجرى معه التجربة وأخذ يعرض عليه الكلمات تباعًا بعد أن اتفق معه مبدئيًا على أمور معينة وهي أن يقرأ الطالب الكلمة التي تعرض عليه ويتأملها ثم يغمض عينيه ويدير وجهه إلى أحد الجانبين قليلاً ثم يفتح عينيه في الحال فلاحظ أنه في الكلمات الاعتيادية كانت كرتا العينين تتبعان في اتجاههما اتجاه الوجه أثناء تحوله عن مكان الكلمة المعروضة أما الكلمة ذات التأثير الخاص فإنه عند عرضها لاحظ أن كرتي العينين لا تزالان في اتجاه تلك الكلمة بالرغم من تحول الوجه عنها إلى جانب آخر كما تبين له ذلك من مشاهدة عيني الطالب حال فتحه لجفنيه عقب إدارته وجهه وقد كرر الأستاذ التجربة مرارًا فكانت النتيجة واحدة في كل مرة ومن ذلك أيقن أن للكلمة ذات الأهمية الخاصة تأثيرًا خاصًا في حركات العينين واجتذابها إلى مصدرها حتى ولو أدير الوجه إلى اتجاه آخر.

فلو كنا في المسائل الجنائية نعرض تباعًا على المتهم الموضوع تحت الاختبار عدة أسلحة مختلفة من بينها السلاح الذي وجد في محل الحادث وظهر لنا أثناء إجراء التجربة على الوجه السالف الذكر أن لهذا السلاح وحده دون باقي الأسلحة التي عرضت على المتهم نفس الأثر الذي كان للكلمة الخاصة لدى الطالب بمعنى أن كرتي عيني المتهم لم تتحولا عنه بالرغم من إدارته وجهه إلى اتجاه آخر كان ذلك دليلاً على وجود علاقة للمتهم بهذا السلاح بالرغم من إنكاره له وتجاهله إياه.

التجربة الرابعة:

وهي أن يؤتي بلوحين من النحاس كل منهما متصل بأحد طرفي سلك كهربائي متفرغ من بطارية كهربائية وفي طريق التيار جلفنومتر دقيق (وهو عبارة عن جهاز ذي إبرة مغناطيسية لقياس مقدار مقاومة التيار)، ويضع المتهم المراد اختباره إحدى يديه على لوح والأخرى على اللوح الآخر ثم تذكر له عدة أسماء من بينها اسم شريكه في الجريمة أو اسم المقتول مثلاً فيشاهد أن إبرة (الجلفانومتر) تتحرك عند ذكر أحد هذين الاسمين دون غيرهما من الأسماء الأخرى وهكذا كلما أعيدت التجربة كانت النتيجة ثابتة ومن هذا يستدل على وجود صلة بين المتهم وبين الشخص المسمى، كذلك الحال لو ذكر أمامه أمر يدعي جهله ولوحظ تحرك عقرب المقياس فإن ذلك يدل على كذبه فيما يدعي.

وإني لأخال القارئ يساوره الشك والدهشة ولكن على حد المثل السائر (إذا ظهر السبب بطل العجب)، فتعليل ذلك ليس بالأمر العسير فكلنا نعلم من أيام المدرسة أنه إذا أحرج أحدنا أثناء الامتحان بسؤال صعب أو وجهت إليه

من الممتحن كلمة أو عبارة محرجة أخذ العرق يتصبب من جبينه وما ذلك إلا لكون السؤال أو الكلمة المحرجة نبهت غدد العرق إلى العمل فيكثر إفرازها كذلك الحال بالنسبة للمتهم الذي ذكر أمامه اسم شريكه في الجريمة أو ذكرت أمامه أمور لها ارتباط بالواقعة أو تفاصيلها أو طريقة ارتكابها فإنه على الرغم من تظاهره بعدم المبالاة وتصنعه الجهل لما يلقى على سمعه ترى عقرب (الجلفانومتر) ينحرف عن موضعه لأن سماعه لهذه الوقائع ينبه من مجموعه العصبي المراكز المتسلطة على غدد العرق حيث توجد في راحة اليدين بكثرة فيزيد إفرازها وبذلك تزيد قوة مقاومة التيار الكهربائي فيتحرك العقرب.

ومهما يكن التنبيه ضعيفاً والزيادة في إفراز الغدد العرقية طفيفة فإنها تكفي لأن يظهر أثرها في التيار الكهربائي حال مروره في جسم المتهم وقت الاختبار.

الفائدة العملية من هذه التجارب للمحقق

من ذلك نرى كيف أن استخراج مكنون الفكر قد يكون بطرق هي في حد ذاتها على جانب من البساطة غير أن مقاومة المتهم لنتائجها تكون مع ذلك خارجة عن طاقته البشرية وفوق متناول كل ما أوتي من عزم وإرادة وأنه لا يقوى على سترها مهما حاول إخفاءها.

فمثل هذه الوسائل لو هذبتها الأيدي العالمة العاملة وارتقت مع توالي الأزمان جريًا على سنة الرقي الطبيعي لجميع الأشياء لا بد أن تصبح يومًا ما كأداة نقرأ بها أفكار غيرنا كما لو كنا نقرأ كتابًا ومع ذلك فإني أرى أن علم النفس العملي في الوقت الحاضر قد يؤدي لنا خدمات جليلة القدر عظيمة الفائدة في التحقيقات الجنائية.

ورب معترض على هذا يقول كيف يعتمد القاضي في حكمه بإدانة متهم على مجرد استنتاجات تافهة كظواهر الخوف أو الاضطراب التي تبدو على شخص متهم بجريمة في حين أنه كما يمكن تعليل هذه بأنها نتيجة ارتكاب الجرم يمكن كذلك تعليلها بأنها نتيجة ارتباك البريء ورهبته من موقف الاتهام ؟ وهو اعتراض طالما كنت أسمعه من الكثيرين، ولكن هذا خطأ محض في فهم المراد باستخدام علم النفس في التحقيق الجنائي، فليس هذا هو الغرض المقصود من القول باستخدامه عمليًا في وقتنا الحاضر فإنه بالرغم من أن علم النفس الحديث مؤسس على قواعد علمية صحيحة وبالرغم من كونه قطع شوطًا بعيدًا في مضمار الرقي بجانب العلوم الطبيعية الأخرى وبلغ شأوًا عاليًا في معارج التقدم والفلاح فإني ممن يقولون بأنه لم يصل بنا بعد إلى الدرجة التي يمكننا معها استخدامه كفاية في ذاته لإقامة الدليل على متهم ليس عليه أي برهان آخر ولكن ذلك لا يمنع من استخدامه في الوقت الحالي كمجرد وسيلة للوصول إلى الأدلة المعتبرة أمام المحاكم الآن والتي تثبت الجريمة على المتهم بالبرهان المقبول قانونًا أمام القضاء ولست أرى أي محل للاعتراض على ذلك متى كان المتهم لديه الضمان الكافي بأن الذي ستقبله المحاكم في إثبات التهمة عليه إنما هي نفس الأدلة وأوجه الإثبات العادية وأنه لم يكن الغرض من استخدام علم النفس إلا كواسطة للوصول إلى تلك الإثباتات القانونية وهناك فرق عظيم بين اعتباره كواسطة للوصول إلى غاية معينة وبين اعتباره هذه الغاية نفسها وحسب القارئ ذلك البرهان الحي الذي مر عليه في صدر هذا المقال والذي ما ذكرته إلا لكي يكون دليلاً عمليًا محسوسًا على صدق ما أقوله فمنه يرى

حضرات القراء كيف كان البحث عن سلاح المتهم في ميدان مخيلته أسهل منالاً وأقل عناء من البحث عنه في ميدان الطبيعة الفسيح المتعدد الأمكنة المتشعب الأرجاء.

فالتجارب النفسية قد تؤدي على تفاهتها وسهولة تناولها أجل الخدم للمحقق وأعظمها فائدة إذا عرف كيف يستخدمها وينتفع بها، ومن ذا الذي ينكر على علم النفس فضله على القانون وشدة حاجة رجال القضاء إليه فهو للمحقق كنبراس يضيء له ظلمة الحوادث فيستعين به في أشدها غموضًا على استجلاء غامضها كما أنه يكون له منه أداة ماضية يستخدمها في هتك ما أسدل على بعض الجرائم من الأستار والحجب الكثيفة وبه يستعين القاضي على فهم عقلية كل متهم أو شاهد وفهم كثير من الأمور والمعضلات التي يشكل على الكثيرين منا فهمًا أو تعليلها تعليلاً صحيحًا فيكون له خير ضمان من الوقوع في الخطأ أو الزلل وبه يستطيع أن يقدر العقاب المناسب لكل مجرم تقديرًا دقيقًا ويختار له أكثر أنواع العقاب ملاءمة لعقليته كما أن القاضي الفطن قد يستطيع به أن ينفذ إلى خاطر الشخص فإن كان شاهدًا يتبين مواضع الصدق والكذب من شهادته أو كان متهمًا يقرأ ما سطرته يد الحوادث على صحيفة ضميره ويعلم منها إن كان مجرمًا حقًا فيدينه أو بريئًا فيقضي ببراءته.

وهو للمحامي أكبر عون على فهم حقيقة موقف موكله ودراسة عقليته بل وعقلية القضاة الذين يتولون محاكمته فيسهل عليه التفاهم معهم ومخاطبتهم بالأساليب والعبارات التي يسهل إقناعهم بها والتي يستطيع بها أن يبث إلى إفهامهم كل ما يجول في خاطره من الآراء مع ما يعززها من الأدلة والبراهين وأن يبسط لهم بأسلوب شيق سهل الفهم عليهم كل ما يحيط بموكله من الشؤون والظروف والأسباب الموجبة لتخفيف العقاب عنه أو إعفائه منه أصالة.

فعلم النفس في الواقع علم جليل القدر يحتاج إليه القاضي والمحقق والمحامي والطبيب والمربي والمعلم والسياسي والاجتماعي والاقتصادي والموسيقي والمصور والشاعر والممثل والروائي والمؤرخ والحفار والنقاش حتى التاجر والصانع ويمكن إجمال مزاياه في أوجز عبارة (بأنه لغة العقول) إذا به يمكنها أن تتخاطب وتتفاهم وبه يمكننا أن ندرسها ونقرأ ما فيها ونقف منها على دخائلها وما تكنه من أسرار، ولذلك فإني أوصي جميع زملائي من حملة القانون أو طلبته بالعناية بأمر هذا العلم العناية اللائقة به وتحصيل ما يتيسر لهم تحصيله كلما سمحت أوقاتهم الثمينة بذلك وليثقوا بأن أوقاتهم لن تضيع عليهم هباء فما ينفقونه اليوم في درسه بجنونه أضعافًا مضاعفة في مستقبل حياتهم العملية التي أسأل الله تعالى أن يجعلها حياة مباركة طيبة الثمرات.

محمد فتحي

[(1)] لندن في 10 أغسطس - ختم مؤتمر السجون الدولي جلساته بالموافقة على طائفة من القرارات ومن جملة هذه القرارات قرار طلب فيه أن يقف القضاة على أخلاق المجرمين وسوابقهم وأن يكون لهم الخيار في توقيع العقوبات للزجر والسلامة، وأن يحتم على الذين يرشحون للقضاء أن يحضروا دروسًا في علم النفس والاجتماع وأن

يلم القضاة بحالة السجون إلمامًا تامًا... إلخ) الأهرام - الأربعاء 12 أغسطس سنة 1925.

[(2)] والمراد بالحركات الخارجية والداخلية هنا هي حركات البسط والقبض بصرف النظر عن كون الحركات مصدرها الأعضاء الخارجية أو الأعضاء الباطنية.

[(3)] وهي عبارة عن قطعة من مادة زلالية تعرف باسم البروتوبالاسما - أي المادة الأولية - وبداخلها نواة صغيرة وهي ذات حركة زحفية تؤديها بواسطة نتوات تبرز من مادتها الزلالية المحيطة بالنواة كالأطراف وتسمى بالأعضاء الكاذبة ويسمى هذا النوع من الحيوان (Proto – Zoa) أي حيوان أولي ويسمى أحيانًا (Unicellular Animal) ومعناها ذو الخلية الفردية تمييزًا له عن الحيوانات المركبة من عدة خلايا المسماة (– Multicellular Animal) أو Meta Zoa)).